بالخبز وحده

نوال نصر الله

"سنشتري اليوم صَمّون المنصور،" أعلنتْ سُكَينة بحماس ظاهر لا يتناسب وطبيعة المهمة المعلَن عنها كما يبدو. فالكلّ مستمرّ في تناول طعام الإفطار بصمت وتلذذ وحرص وتركيز: كاهي مغمور بشيرة معطَّرة بماء الورد، ومرصَّع بقطع صغيرة من القيمر الناصع البياض. الكمية محدودة، والأصابع كثيرة، ولا وقت لتضييع لحظات ثمينة في التعليق على شراء صمّون المنصور. واستمرّت الأصابع: الصغيرة والطويلة، الدقيقة الناعمة والغليظة الخشنة، تمزّق قليلاً من طيّات الكاهي الرقيقة المغرقة بالشيرة، وتَلْحس بها قليلاً من القيمر. وفي الفم تختلط الطعومُ بانسجام متناهٍ. إنّه إفطار خصوصيّ يختتمون به زيارتَهم الصيفية إلى أقربائهم في بغداد. فالعطلة الصيفية شارفتْ على الانتهاء، والعودةُ إلى منزلهم بالموصل موعدُه عصرُ هذا اليوم.

أولادها غيرُ متحمّسين ويلحّون بالبقاء يومًا آخر... يومًا آخر من الانفلات مع أقربائهم من الأطفال. لكنّ سكينة مُصرّة: أقرباوها كرماء إلى أبعد حدّ، والحقّ يقال، ولكنّ البيت صغير يكاد يضجّ بأصحابه ولا تودّ أن تُرْهقهم أكثرَ من ذلك.

اعتادت سكينة أن ترجع إلى الموصل محمّلةً بصمّون مخبز المنصور الذائع الصيتِ. أبو كريم، صاحبُ المخبز، اعتاد زياراتها الموسمية وميَّزَ صوتها حين أمْلت عليه طلبيتَها.

المخبز في الطرف الغربيّ من بغداد. والرحلة ليست بالهيّنة من بيت أقربائها في الطرف الشرقيّ بسيارتهم المتواضعة: لا تكييف ولا من يحزنون، وفي عزّ حرّ آب اللّهاب الذي يذوِّب المسمارَ في الباب، كما يقول المثل. ولكنْ كلّ شيء يهون في سبيل شراء صمّون أبو كريم الورد. فهو صمّونٌ غيرُ معجَّلِ الصنع، قد اكتمل اختمارُه وحَسُنَ شواؤه، منثورٌ بحبّات السمسم المحمّص، يؤْكل بأكمله ـ بقشره ولبِّه.

وَجدتْ سكينة أنّ أبو كريم قد عبّأ طلبيَّتَها في أكياس ورقية كبيرة. وبعد التحيات والسلامات دفعتْ ثمن الصمّون، ورَصَّت الأكياسَ في صندوق

السيارة، وضحكتْ قائلةً لزوجها سليمان: "أبو كريم يعرف يداري خبزته." ثم عرَّجا للعودة إلى البيت .
النهار حينذاك قارب انتصافَه، ولم يبق إلاّ أن يتناولوا وجبة غذاء خفيفة مع أقربائهم ويشدّوا الرِحّالَ إلى البيت حيث العودةُ إلى الهدوء والروتين اليوميّ المريح. حالَ وصولها ستعطي كيسًا من الصمّون لجارتها أم دنيا ـ فلها أفضالٌ عليها كثيرة. أما البقية فستخزَّن في المجمِّدة وتُستْهلك بتقنين؛ فالله أعلم متى ستكون زيارتُهم القادمة إلى بغداد .
عبق جوُّ السيارة برائحة الصمّون المُسَمْسَم الطازج المتسلِّلةِ من صندوق السيارة، فشَحذتْ شعورَهما بالجوع. "رائحة الصمّون تدوِّخ،" قال سليمان. سكينة أعطَتْه أذنًا من طين وأذنًا من عجين؛ فهي لا تريد أن تُنقِصَ من ذخيرة الصمّون وهي ماتزال في بغداد .
"ركِّزْ على الطريق الآن كي نصل بأسرع وقت ونأكل،" قالت مصبِّرةً، "ولكن انتظرْ! هذا آخرُ يوم لنا ببغداد، ولم تَسنحْ لنا فرصةُ العبور على الجسر المعلّق !"
غيَّر سليمان اتجاهَ السيارة بسرعة متوجِّهًا إلى كرادة مريم كي يَعْبرا إلى الرَّصافة عن طريق الجسر المعلَّق. لا فائدةَ من مناقشتها؛ ذلك أنّ عبورَ الجسر المعلَّق، كشراء صمّون المنصور، طقسٌ شعائريّ آخر لا بدّ من ممارسته قبل الرحيل من بغداد .
معالم بغداد تتغيّر بسرعة من زيارة إلى زيارة، وهي تستعدّ لاستضافة مؤتمر عدم الانحياز. الفنادق الشاهقة على ضفاف دجلة لم تكن هناك في الزيارة السابقة، وهذا الآخر يشبه زقورة البابليين. والتحويلات! ما أكثر التحويلات !
أفاقا على منظرِ شخصٍ بملابس عسكرية يلوّح لهما بالوقوف. قال سليمان لسكَينة: "الظاهر يريد توصيلة ببلاش..." وعَبَرَه مسرعًا. ولكنْ سرعان ما رأيا خمسة عساكر أو ستةً مدجَّجين بالرشاشات المصوَّبة تجاه سيارتهما، وأشاروا عليه بالوقوف. قال أحدُهم بحدّة وخشونة مخاطبًا سليمان: "أتَعْرف أين أنت الآن؟ أكنتَ تَسُوق وأنت نائم؟"
لجم الرعبُ لسانيْهما. استمرَّ العسكري مقرِّعًا: "أخي، أنت الآن في حرم القصر الجمهوريّ." وأشار لسليمان بأن يَكْسر يمينًا ويقفَ أمام مكتب استعلامات القصر .

"هاي نومتنا،" قال سليمان بانزعاج، واستمرّ يدردم: "هل كان لا بدّ أن نَعْبر الجسر المعلّق؟! ألف لعنة ولعنة على الجسر المعلّق، وعلى الذي يريد أن يرى الجسر المعلّق. وهل كُنّا سنموت بدون صمّون المنصور!؟"
شعرتْ سكيْنة بالذَّنْب. تعرف كيف يَفقد سليمان أعصابَه بسهولة، والحرُّ لا يطاق. كان من المفروض ألاّ تنساق إلى نزواتها. ولكنّها تحبّ هذه المنطقة، وتحبّ أن تزورها ولو مرّةً في السنة؛ ففيها الكثيرُ من ذكريات طفولتها البغدادية. وهل كفرٌ وحرامٌ أن تتمتّع بمدينتها؟ طأطأتْ رأسَها ببطءٍ ولم تُجبْ، وأحسّت بحرقةٍ في عينيها .
لم يُسْمح لهما بمغادرة السيارة. أعْطيا الضابطَ هويتيْهما. قرأهما بسرعة:
"مدرِّسان في ثانوية في الموصل." حاول سليمان أن يَشْرح الموقف كما هي عادتُه حين يوقفه شرطيُّ مرورٍ ببغداد: "نحن من الموصل ولا نَعْرف بالتمام طريقَنا في شوارع بغداد." رجالُ الشرطة عادةً يتفهّمون الموقف ويَعْذرون ويُقْلت سليمان، ولكنْ ليس هذه المرّة .
ذهب الضابط بالهويَّتيْن إلى داخل المكتب المكيَّف وعاد يتمندل: "أختي، أنتِ إبقي بالسيارة. أما أنتَ فتعال معي إلى المكتب ! "
أصيبت سُكَيْنة بالرعب. لأول مرّة تحسّ بخطورة الموقف. تُرى هل سترى سليمان مرة أخرى؟ أين سيأخذونه وماذا سيفعلون به؟ هل سيعذّبونه؟ وأجهشتْ بالبكاء .
أحسّت برأسها يغلي داخل السيارة مثلَ الفرن. خرجتْ من السيارة. شمس الظهيرة تصبّ عليها حممًا بلا رحمة. ليس من شجرة تَحْتمي بها. ليس من قطرةِ ماءٍ تبلّل بها شفتيْها. حين هدأتْ بعضَ الشيء وتوقفتْ عن البكاء لاحظتْ سيارةً أخرى عن بعد، أبوابُها مفتوحةٌ، وفي الداخل امرأتان وطفلٌ تَخْتلط أصوات بكائهما بصراخه. تحسستْ سكيْنة قمّة رأسها: إنّه حارّ يغلي! أحسّت بالضغط وبدأتْ تتململ في مكانها. تخاف أن تتحرّك؛ فالضبّاط منتشرون في كلّ مكان. الوقت يمضي ببطء شديد .
فجأةً فُتح بابُ المكتب وخرج منه سليمان مع شخصٍ بملابس مدنية. تبادلا بعضَ الكلمات. ركب الرجلُ السيارةَ التي أمامهما واستدار، وخرج إلى الشارع مسرعًا وكأنّ الشياطين تطارده. عاد سليمان إلى مقعده بالسيارة وشبحُ ابتسامةٍ يَلُوح على شفتيْه بالرُّغم من الشحوب الذي يغلّف وجهه: "الجماعة في

السيارة التي أمامنا أيضًا من الموصل ويبدو أنّهم ارتكبوا الخطأ نفسه. اقتنعوا بأنّ تحويلتهم ـ لعنة اللهِ عليها ـ هي السبب... عدا هذا كان الله في عوننا."
تركوا المكان مسرعين غيرَ مصدِّقين أنَّهما نفذوا بجلدهم. وحين عبروا الجسر المعلَّق لم تَشْعر سكَينة بالرَّغبة في النظر إليه .

مقتربات مركز مدينة بغداد مكتظّة بالسيارات؛ فوقْتُ خروج الموظفين الساعة الثانية أسوأُ وقتٍ للسياقة. السيارات تزحف، وداخلُ السيارة حارٌّ كالفرن بالرُّغم من الشبابيك المفتوحة. اشتريا قنينتيْن من المشروبات الغازية من أحد الصبيان الذين يَطُوفون حول السيارات شبهِ الواقفة ملوِّحين لهم بالقناني المبرّدة .
ـ اذهبْ إلى الصندوق واجلبْ لنا صمّونةً نأكلها مع المشروب .
قضمةٌ من الخبز الطازج وشربةٌ من البارد أشعرتاهما ببعض الارتياح .
ربَّتتْ سكَينة على يد سليمان وقالت مبتسمة: "هل تَعْرف أنَّني طوال فترة انتظاري خارج مكتب الاستعلامات كنتُ قلقةً على الصمّون لو أوقفونا تلك الليلةَ في السجن؟"
ضَحِكَ سليمان قائلاً: "وأنا أيضًا ! "
بوسطن